الخطأ ...

قصة بقلم عبد الله خيرت

جلس الاستاذ حسن يرتشف بلذة القهوة التي صنعها بنفسه وتهيأ ليكتب كلمة وعد بالقائها في فرح زميله « فتحي » الليلة .. وامسك القلم وهو يتنهد بارتياح . لو ان احد الزملاء زاره الان لكان اول ما سيقوله له « يا سلام على الهدوء الجميل ... هو ده صحيح البيت المنالي مش نسيب المدرسة نلاقي الستات والعيال عاملين مدرسة تانية .. لو الواحد يا اخي يبص يلاقيه زيك » ..

هذه هي الحقيقة .. وقد احس بذلك احساسا قويا وعرف نعمة الهدوء الذي يعيش فيه عندما زار اخته هذا الاسبوع لانها وضعت مولودها الرابع .. لقد كان اولادها يفسدون كل شيء ويصعدون فوق المقاعد بأحذيتهم ويصرخون بدون سبب ولم يفلح ابوهم في اسكاتهم ابدا حتى قال الاستاذ حسن لنفسه وهو يتململ على مقعده « ده مش بيت .. ده سيرك » ولا زالت امه هناك الى الان .. انه يعجب لها كيف تستطيع تحمل كل هذه الضجة وهي التي ربما تظل طول اليوم فلا يتبادل معها غير كلمات قصيرة وتضيق اشد الضيق اذا رأت ذرة تراب على مقعد .

لو انه كان يعيش مثل اخته وزوجها فهل كان سيجد ذلك التقدير والاحترام من المفتشين ؟ وهل كان الناظر سيعامله كما يعامله الان ؟.. او كانت ستتاح له الفرصة ليقرأ ويعرف معلومات عميقة متشعبة عن كل شيء ؟ كان بالتأكيد سيصبح مثل بقية الزملاء يذهب الى المدرسة مرهقا وثيابه مكرمشة كأنه ينام فيها وعلى كراسة التحضير بقع الحبر والزيت ثم يشكو لكل من يلقاه الظلم الواقع عليه وان الناظر يعمل على نقله الى الصعيد .

الساعة ما زالت الثالثة .. وامامه وقت كبير ويكفي ان يبدأ فقط فيجد الكلمات تجري كأنها تكتب نفسها .. ولكنه قبل ان يبدأ تذكر امرا مهما رضي عن نفسه كل الرضى لانه تذكره في الوقت المناسب .. اليس من الجائز ان يحضر مدير المنطقة حفل الليلة ؟ لقد ارسل له فتحي بطاقة دعوة بالبريد ثم ذهب الى بيته وترك هناك بطاقة اخرى وهو كذلك يقيم في نفس الحي ويبدي ودا ظاهرا نحو الجميع .. وقال الاستاذ حسن لنفسه ان هذا ليس امرا صعبا بالنسبة له ، فكم القى خطبا امام مديرين ، وفي الوقت الذي كان الزملاء فيه يكادون يختفون من فوق مقاعدهم حين يطلب الناظر من احدهم ان يلقي كلمة ، كان هو يقوم بشجاعة فيتحدث ، فهل تلجلج مرة او ارتبك ؟

وامام هذا المدير نفسه القى منذ وقت قريب كلمة في عيد الام لا زال يحس بالفرح يغمره كلما تذكرها ، ويعجب من نفسه كيف استطاع ان يتكلم بمهارة ، وان يتحدث عن اشياء لا تخطر ببال احد ، وكيف ربط بذكاء بين الام وقولهم « أم رأسه » حتى لقد بدت الدهشة واضحة على وجه المدير وصفق له يومها ست تصفيقات كاملة ميزتها اذنه من بين التصفيق المتشابه والضجيج ورغم بعد المسافة بينهما .

وطارت من رأسه كل الافكار التي كان قد اعدها وبدأ يفكر من جديد فهو لا يعرف ان كانت ستتاح له فرصة اخرى قريبة فيثبت لرجل كالمدير أن في رأسه شيئا اخر يختلف كل الاختلاف عن تنظيم الجداول وترقب العلاوات الدورية واللغو الفارغ حول الكادر الجديد والقديم .

وحين كتب « سيدي المدير الموقر » ثبت نظارته السميكة على عينيه وزم شفتيه بعزم وارتسم على وجهه ذلك الاهتمام الذي يدخل به كل فصول المدرسة .. « ... والزواج والازدواج والامتزاج ، هذه الكلمات قريبة في نطقها كما ترون ولكنها في معانيها اشد قربا واوثق صلة فكلها فروع شجرة واحدة » واعجبه هذا التشبيه الموفق فوضع تحت هذه الجملة خطا بالقلم الاحمر ليقرأها بطريقة معينة . ومرت عيناه والقلم الاحمر في يده على الجمل التي كتبها فوضع تحت بعضها خطوطا كذلك « ... وهو نصف الدين ينطق بذلك الاثر ويدل الخبر .. » ولكنه توقف ... فقد اصبح منذ الان هو الاعزب الوحيد بين زملائه ، واذ يتذكر انه سيقرأ هذا الكلام امام اناس يعرفونه ويعرفون رأيه في الزواج والمرأة يحس بالقلق .. ربما يصيح احدهم وهو يضحك « اعد يا استاذ » او يهمس الناظر في اذن المدير ـ وهذه هي المصيبة ـ لمجرد الثرثرة فقط « مع انه يا سعادة البك مش متزوج .. تصور سيادتك التناقض العجيب » .. واذا حدث هذا فماذا سيقول عنه المدير وقتها ؟؟ غير ان الاستاذ حسن استمر يكتب وقد استبدت به رغبة قوية ليوضح رأيه من جديد ويجيب على تساؤل البعض « لماذا يقف بعض الناس من الزواج موقفا سلبيا » وهكذا ظل يكتب ويراجع ويشطب ويضع الخطوط بالقلم الاحمر تحت الجمل ، ولدهشته وجد ان الوقت يجري والساعة تقترب من الثامنة ولا زال عنده كلام كثير فختم الموضوع وقام فارتدى ثيابه ببطء شديد وقبل ان يخرج نظر الى المرآة اكثر من خمس مرات ليتأكد من ان ربطة عنقه لن تفاجئه وتميل الى الشمال فتبدو رقبته مائلة معها ..

وحين استطاع ان يجد لنفسه مكانا في الاتوبيس المزدحم بعيدا عن اكتاف الصاعدين والهابطين واحذيتهم ، بدأ يفكر لاول مرة في الحفل الذي هو ذاهب اليه .. انه لم يحضر حفلات زواج منذ فرح اخته فكيف يتصرف الليلة ؟. هل سيبدأ العروس بالتحية او يسلم على امها ايضا .. ان اكثر ما يضايقه ويشعره بأنه مقيد ان يجد نفسه بين غرباء لا يعرفونه ، ومن اجل ذلك كان يعتذر دائما عن حضور حفلات كهذه ولولا انه وعد وعرف الجميع انه سوف يلقي كلمة لما جاء الليلة ابدا .

وبعد دقائق كان الاستاذ حسن يصعد السلم الواسع المضيء ، واشتدت حيرته والاطفال الصغار يتواثبون من حوله والضحكات الكثيرة تصم اذنيه حتى تصور ان كل الحاضرين سيصمتون فجأة عندما يدخل ويحملقون فيه ... ووقف لحظة حائرا لا يدري ماذا يفعل .. وضايقه ان احدا لم يلتفت اليه ، وتأمل الوجوه الضاحكة فلم يتعرف على احدها ولولا ان فتحي رآه مصادفة فجرى نحوه واحتضنه ضاحكا وهو يقول « عقبالك يا استاذ حسن » لكان من المحتمل ان يظل واقفا هكذا مدة طويلة ..

وهدأت نفسه قليلا عندما جلس مع زملائه فرأى المقعد الفخم الذي اعد للمدير .. ولم يتحدث معهم كثيرا .. قالوا له وهم يضحكون « عقبالك » ورد عليهم دون ان يضحك « متشكر » .. وكان يلتفت للحظات بعد ان بدأت الحفلة الى العروسين فيخيل اليه ان كل شيء فيهما يضحك ، ولم يجد من نفسه رغبة ليتابع الراقصة التي اخذت تحرك كل اجزاء جسمها بعنف كأنها تمسك كل جزء وتهزه بيدها ولم يضحك ـ كبقية الحاضرين ـ على الفكاهات السخيفة التي القاها طالب خائب يعرفه .

ولا بد ان احدا كان ينتظر المدير في الشارع ، فقبل ان يدخل كانت الراقصة قد اختفت والضجة قد هدأت وتطلع الجالسون حتى الاطفال الصغار ناحية الباب يترقب ... ولم تتمالك ام العروس نفسها من الفرح حين رأت الضيف الوقور فأطلقت زغرودة طويلة وبعد ان جلس المدير ونزل فتحي فسلم عليه التفت حوله كل الاقارب واخذوا

كلهم يحيونه بصوت واحد « شرفتنا يا بيه .. ربنا يعلـــي مقامك .. اشرقت الانوار .. عقبال الانجال .. »

ولم ينتبه الاستاذ حسن عندما قام ليلقي كلمته الى ان المديـــر كان قد اخذ طريقه نحو الباب واخذ معه كل الهدوء الذي ساد لفتـــرة قصيرة .. ولما كان الاستاذ حسن قد اصبح امام الميكرفون ورأى انظـار الناس قد بدأت تتجه اليه فقد اضطر ان يتكلم ولكن بفتور واضح ... كأنه يقص على الطلبة تاريخ بناء القلعة او يعرفهم طول السور الـــذي بني حولها .. اذ انه عرف ان احدا لن يفهم كلامه ، فقد خرج المديـــر واتى لواحد من هؤلاء حتى ولو كان الناظر نفسه ان يدرك عمق مـــا يقول ؟. ومرت الجمل التي وضع تحتها خطا فاترة ضعيفة كبقية الجمل الاخرى . لم يكن هناك ما يثير حماسه في الحقيقة بعد ان خرج المديـــر .. وانتظرت ام العروس ان تسمع منه كلمة واحدة تعرف منها انـــه يتحدث عن فرح ابنتها او تسمعه يتحدث عن فتحي ويقول انه وفق الى عروس من بيت طيب كما كانت هي تسمع الناس يقولون في الافراح.. واخيرا قالت لاحدى الجالسات بجوارها بصوت لم تستطع ان تجعلـــه همسا :

ـ « الراجل ابو نضاره ده بيقول ايه .. ايه السوبرمان اللـــي بيتكلم عنه ده .. والله ما انا عارفه .. مـــا حـــد يقول له يسكت خليهم يغنوا » .

وكان الاستاذ حسن قد شعر فعلا ان الناس قد انصرفوا عنـــه وكان يريد ان يسكت .. غير انه لم يكن باستطاعته ان يقطع الكلمة مـن نصفها فاستمر يتكلم وهو يحس انه يؤدي رغما عنه عملا بغيضا الى نفسه.

وحوالي الساعة العاشرة كان قد سئم من كلمة « احسنتم » التي كررها بعض الحاضرين بل انه كره من قلبه كل من قال له هذه الكلمة.. واحتى في هذه اللحظة ان اصابع سوداء ضخمة تعبث في رأسه وتكتم نفسه فاستأذن من زميله واسرع بالخروج .. وعندمـا احتواه الشارع الواسع لم يكن يصدق انه نجا من هذا السجن الخانق .. وعلى غـير عادته لم يجد عنده رغبة في الذهاب الـــى البيت وقال لنفسه ان المواصلات مزدحمة ، ولو انه ركب الان لكان من الجائز ان يختنق مـرة اخرى فمضى يجر قدميه بدون هدف ..

وتذكر ـ دون ان يعرف لماذا ـ موضوع زواجه الذي كاد يتم منـذ خمسة عشر عاما .. تذكر كل شيء كأنه يحدث امامه الان وخيل اليـــه انه يراها عن قرب واخذ يقارن بينها وبين عروس فتحي التي رآهـــا الليلة .. كانت « هي » اجمل منها بكثير رغم انه لم يرها مـرة وعلـى وجهها كل تلك المساحيق .. ولكنه لم يكن مخطئا حين تركها بل كانت هي المخطئة .. لقد كانا متفاهمين تفاهما تاما وفـي اللحظات القصار التي اختلساها وحدهما وجدا من نفسيهما الجرأة ليتحدثا عن الاطفال وعددها واسمائها .. وهو لا يذكر ـ حين كان يزور اسرتها مع امه ذات مرة ـ من الذي اثار الحديث وقتها عن نابليون ولكنه يعرف انه تحدث في هذا الموضوع بالتفصيل وناقش آراء المؤرخين في هـــذه الشخصية العجيبة وتكلمت هي .. تكلمت اكثر منه فـي الحقيقة وعندما اراد ان يرد عليها قالت بهدوء وهي تضحك « تسمح يا استاذ حسن .. مع انك استاذ تاريخ .. الا ان حضرتك ما عندكش فكرة قوية عن الموضوع ده.. مش بيقولوا باب النجار ؟؟ » وضحكوا كلهم علـى كلامها حتى امـــه ضحكت معهم ، اما هو فظل صامتا طول الوقت فقد كانت كلماتها هـــذه بالنسبة اليه اهانة لا ينساها .. كيف يعيش مع فتاة كهذه .. واماـم الناس تسخر منه هكذا ببساطة .. وقبل ان يهبط السلم ليلتها قـــال لامه .. « مستحيل » ..

وانتبه الاستاذ حسن الى نفسه ، هل سيظل يتسكع في الشوارع طول الليل ؟ يجب ان يذهب الى البيت .

وعندما ادار المفتاح في الباب ، وكانـــت الساعة قـــد تجاوزت الواحدة ، بدأ يكتشف بوضوح وهو يكاد يسمع دقات قلبه في هـــذا الصمت المؤلم لماذا هو حزين .

ان ما كان يسمعه دائما من انه استاذ يعمل بضمير وتقدير « جيد جدا » الذي كان يحصل عليه في العام اكثر من مرة وقراءاته المتشعبة .

كل هذا بدا له الان وهما باطلا وعبثا فارغا لا غناء فيه .. وزملاؤه لم يصدقوا ابدا ما كان يقوله عن المرأة والزواج بل انهم كانوا يسخرون منه بينهم وبين انفسهم . وعندما كانوا يقولون له الليلة عقبالك كانـت الكلمة تخرج كأنها تعزيه كأنهم يقولون له انت « مسكين » ولعلهـم الان بعد ان انتهت الحفلة قد جلسوا مع زوجاتهم وتقاربت منهـم الرؤوس واخذوا يتحدثوا عنه بأسى .. لماذا عاش في الخطأ كل هذه السنين ؟؟ كلهم سبقوه .. هذه هي الحقيقة حتى اخته التـــي تصغره بسنوات كـثيرة .

ولم يكن قد خلع ثيابه بعد فوقف يحدق فـــي المرآة ويتحسس وجهه بيده : ماذا يحدث لو انه اراد ان يتزوج الان ؟ نعم ماذا يحدث.. هل سيقول عنه زملاؤه انه وقع .. انه لا يعنيه كلامهم فهـــو يريـــد اولادا يفرح بهم ..

نعم سيتزوج وينجب بنتا اجمل من بنت الناظر ومن اولاد اختـه كلهم .. يا له من منظر لن ينساه ابدا حين كـــان زملاؤه يخفضون رؤوسهم حتى تكاد تصل الى الارض ليسمعوا همس اطفالهم ..

وفتح الباب ليفضي الى امه برغبته ويطلب منها ان تختـار لـــه عروسا وهو يعرف انها لن تحتمل هذه الفرحة ، فكثيرا مـا كانت تقول له انها تريد ان تفرح به قبل ان تموت وهو يصم اذنيه عـن كلامها .. ولكنه تذكر ان امه ليست بالبيت فجلس على طرف المقعد يفكر .. لـم يكن يصدق انه سوف يصبح شخصا اخر .. هل من المعقول ان تختفي تلك الصرامة التي تبدو دائما على وجهه والتي كان يفشل كل مرة فـي تجنبها حين يسمع الطلبة يهمسون لبعضهم عندما يدخل عليهم الفصـل « ابو علي زعلان ليه ؟ » وكثيرا ما كانت تصل الى اذنيه كلمات غريبـة « اصله ماعندوش ولاد... ده لو كان مجوز كنت تلاقيه دايما يضحك » وكلمات اخرى .. افكار اطفال .. اطفال ...

ولكن الاستاذ حسن فاجأه شيء مزعج فقد انتصبت امام عينيـــه سنوات عمره الخمس والاربعون كأنها حاجز ضخم يشوه كـــل جمال الدنيا ويضيق عليه سجن وحدته ويحطم كل الامال التي كـــان يعيشها الان .. يتزوج ؟؟ عليه ان يرضى بعانس في الاربعين وعندما يبلغ هـــو سن الخمسين سيكون ابنه الاول في سن الرابعة ، وهو لا يعرف كذلـك اذا كان سيمكنه في هذه السن انجاب الاطفال . لقد ضاعت عليـــه الفرصة وانتهى الامر .. انه يعرف انه سيموت في الستين فقد مـــات والده وجده في هذه السن ولكن امامه سنوات طويلـة فكيف يعيشهـا وحده ؟؟ وبدت له الايام القادمة صحراء مظلمة مخيفة فتحركت شفتاه دون ان يدري « يا سلام .. دي حاجة تضايق جدا » ثم سكت فجـــأة وسأل نفسه لماذا يتحدث بصوت مرتفع هكذا .. لقد اخطأ بذهابه الـى الحفل .. ويجب الا يفكر في هذا الموضوع مرة اخرى .. هذا هـــو الخطأ الوحيد الذي ارتكبه .

وقام يخلع ثيابه ويرميها باهمال .. وغسل وجهه بالماء كما تعود ان يفعل كل ليلة .. ولكنه قبل ان يطفيء النور كان السؤال المحير يلح على ذهنه من جديد : كيف يمكنه ان يعيش الايام القادمة وحـــده .. كيف ؟؟ وسحب الغطاء على عينيه بشدة وظل يتقلب على السرير الواسع مدة طويلة وهو على ثقة بأن احلامه ستكون مليئة بالاطفال .

القاهـرة

عبد الله خيرت

مكتبـــة عبد القيوم

زوروا مكتبة عبد القيوم ببورتسودان تجدوا احدث المطبـــوعات العـربية ، وكـذلك مجلة الاداب البيروتية ومنشورات دار الاداب .